الفصل الثاني

الأمثال

أ ـ أصل الكلمة ومعناها:

عند ابن فارس عند المرزوقي

قال أحمد بن فارس: «الميم والثاء واللام: أصلٌ صحيح يدلّ على مناظرة الشيء للشيء. وهذا مثل هذا أي نظيره. والمثل المضروب مأخوذ من هذا، لأنه يذكر مورّى به عن مثله في المعنى». وعرف السيوطي المثل مقتبساً تعريفه من كلام المرزوقي في «شرح الفصيح» فقال: «المثل جملة من القول مقتضبة من أصلها، أو مرسلة في ذاتها. فتتسم بالقبول، وتشتهر بالتداول، فتنقل عمّا وردت فيه إلى كلّ مايصحّ قصده بها من غير تغيير يلحقها في لفظها، وعمّا يوجبه الظاهر إلى أشباهه من المعاني. فلذلك تضرب، وإن جهلت أسبابها التي خرجت عليها».

وهـذا الكلام يعني أنّ للأمثال صيغاً جَوامدَ، لاتتبدّل بتبدُّلِ المخاطبين بها، وتراكيبَ لا يعْروها مايَعْرو غيرها من مراعاة مقتضى الأحوال. حتى قواعد النحو تظلّ عاجـزة عن السيطرة عليها. فأنت تقول: «أعط القوس باريها» بسكون الياء وحقُّها ظهور الفتحة، وتقول: «الصيف ضيعتِ اللبن» بتاء مكسورة في مخاطبة المذكر والمؤنث والمثنى والجمع.

أصل الكلمة سامي

وذهب المستشرق (زلهايم) إلى أنّ أصل كلمة (مَثل) ساميّ، وأنّ العربية كأخواتها الساميات استخدمت جذره اللغوي وفروعه المشتقة للدلالة على معان متقاربة. ورأى أنّ العـرب والسـاميين قد ضربـوا الأمثال، قبل أن يسموها بهذا الاسم. ووجد في استخدامه دليلاً على ميل الشعوب السامية إلى التجريد، وإلى الرغبة في عقد المقارنات التصويرية بين الأوضاع المتقاربة.

الأثر عند اللاحق

وللبلاغيين في المثل والتمثيل مفهوم آخر، إذ يرون أن المثل شكل من أشكال الصور البيانية، فهو إمّا تشبيه وإمّا استعارة، لأن ضربه يعني تشبيه حال بحال.

ب ـ التأليف في الأمثال:

بلغت العرب في ضرب الأمثال شأواً بعيداً، وشاعت في كلامهم، إذ كانوا يسوقونها في الخطب والوصايا. قال الجاحظ: «كان الرجل من العرب يقف الموقف، فيرسل عدة أمثال سائرة، ولم يكن الناس جميعاً ليتمثلوا بها إلّا لماماً لما فيها من المرفق والانتفاع»

ولمّا تلقاها علماء اللغة من ألسن الرواة والحفظة، وجدوا فيها ثروة لغوية ضخمة، فأكبوا عليها يجمعونها وينسّقونها، ويشرحونها، ويحاولون في هذا الشرح أن يشفعوا كلّ مثل بما يناسبه من توضيح، أو بما يكمله من أخبار وقصص. ثم انتقلت العناية بالأمثال العربية من المؤلفين القدماء إلى الباحثين الأوربيين المعنيين بدراسة الأدب العربي والتراث العربي، وقد ظهرت هذه العناية في فترة مبكرة إذ بدأ الاهتمام بها وبنشرها منذ عام ١٥٩١م وقوي مع قوة حركة الاستشراق. فما بداية التأليف في الأمثال وكيف تطورت بعد ذلك؟ يرجع الدارسون المحدثون التأليف في الأمثال إلى القرن الهجريّ الأول، ويذكرون أن عبيد بن شرية الجرهمي، وعلاقة بن كريم الكلابي، وصحار بن عياش العبدي ألفوا كتباً في الأمثال، وفقدت هذه الكتب منذ عصر مبكر. وذكر العسكري «أن هذه الحكم والأمثال كانت مدونة منذ الجاهلية، وبقيت إلى عهد الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم» وذكر كذلك «أن عمران بن حصين قال: سمعت النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم يقول: إنّ الحياء لا يأتي إلّا بخير. فقال بشير بن كعب ـ وكان قد قرأ الكتب ـ إنّ من الحكمة: إنّ منه ضعفاً. فغضب عمران بن حصين، وقال: أحدّثك بما سمعت من النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم، وتحدّثني عن صحفك هذه الخبيثة».

وربما كان كتاب (الأمثال) للمفضل بن محمد الضبي (ت نحو: ١٧٠هـ) أقدم كتاب بلغنا مما ألفه الأقدمون في الأمثال، وفيه مجموعة من الحكايات والنتف التاريخية والخرافات التي تنتهي بعبارة يقولها بطل القصة أو من يعارضه، فتذهب مثلاً.

ومن كتب الأمثال القديمة التي حفظها لنا التاريخ كتاب ألّفه أبو فيد مؤرّج السدوسي (ت نحو: ١٩٥هـ) وعنايته بالتفسير اللغوي واضحة، وكتاب لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت نحو: ٢٢٤هـ) وفيه جَمع بين شرحين الشرح اللغوي والشرح القصصي.

عناية المستشرقين بالأمثال

قدم التأليف فيها

تدوين الأمثال في الجاهلية

أقدم كتب الأمثال التي وصلتنا

بعض كتب الأمثال

أشهر كتب الأمثال

عدد كتب الأمثال المؤلفة

مجمع الأمثال أوسع كتب الأمثال

ومن أشهر الكتب المتداولة على نطاق واسع كتاب (الفاخر) للمفضل بن سلمة الضبّي (ت: ٢٩٠ هـ) ويجمع الأمثال والأقوال السائرة. وكتاب (الدرة الفاخرة) لحمزة الأصفهاني (ت بعد: ٣٥٠) وهذه الدرة مجموعة من الأمثال أولها لفظ على وزن (أفعل) ومن أكبر كتب الأمثال (مجمع الأمثال) للميداني أبي الفضل أحمد بن محمد (ت: ١٥٨ هـ) وهو مرتّب على أوائل الأمثال وفق الترتيب المعجمي، ومع كل مثل ما يوضح لغته، ويعرب تركيبه، ويدلّ على أصله، ويشفع التفسير بتعليل. وفي خاتمة كل باب من أبوابه ماجاء من أمثال الباب على وزن أفعل، ثم ماقال المولدون من أقوال ذهبت مذهب الأمثال. وكتاب (المستقصى في الأمثال) لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ) لايقلُّ شأناً عن كتاب الميداني.

ولم تكن عناية الدارسين المحدثين بالأمثال بأقلّ من عناية المتقدمين، ومن المعنيين بها المستشرق الألماني رودلف زلهايم الذي ألف كتاب (الأمثال العربية القديمة) واستقصى ما ألّفه الأقدمون، فوجد أن مجموع ما أُلّف في الأمثال (٤٢) كتاباً بين مطبوع ومخطوط وضائع. ووجد أن في بعض هذه الكتب خلطاً بين الأمثال وغيرها من العبارات الدائرة على الألسن، والحكم السائرة، كما وجد أن بعض المؤلفين لم يفرق بين الحقائق التاريخية والأساطير التي حكيت حول الأمثال.

وفي كتاب زلهايم إحصاء لأمثال العرب، ولعدد الأمثال في بعض الكتب المشهورة مثل كتاب مجمع الأمثال للميداني. فقد وجد هذا المستشرق أن كتاب الميداني أوسع الكتب في بابه، وأن عدد الأمثال التي تضمنها (٥٦٣٨) ويقول: «وإذا احتسبنا بعد ذلك (٢١٧) يوماً من أيام العرب ذكرها الميداني في الباب التاسع والعشرين، و (٢٢٨) مثلاً تنسب للرسول وغيره... فإننا نصل إلى (٦٠٠٠) مثل ونيف كما ذكر الميداني في مقدمته».

ج ـ أنواع الأمثال:

لم نجد في كتب الأقدمين تقسيماً واضحاً، يجعل الأمثال أنواعاً بحسب الأفكار والصور. ووجدنا من المصنّفين من يميز الأمثال القديمة من أمثال المولّدين، والأمثال المبدوءة بلفظ على وزن (أفعل) من سواها، أما المستشرق زلهايم فقد وجد أربعة أنواع في أمثال العرب، وهي:

١) المثل التصويري: ومعناه عنده التعبير غير المباشر عن تجربةٍ بلفظ موجز، وتشبيه حسن كقول العرب: «نعم كلب في بؤس أهله» وقولهم: «لايجتمع السيفان في غمد» وقولهم: «قد بيّن الصبح لذي عينين» ومن الواضح أن المثل الاول يجعل اللئيم النّهاز كلباً، والثاني يشبه البطلين بسيفين، والثالث يقرن الحق بالصبح.

٢) التعبير المثلي: وهذا النوع لايعرض أخباراً معينة عن طريق حالة بعينها ولكنه يبرز أحوال الحياة المتكررة، والعلاقات الإنسانية في صورة يمكن أن تكون جزءاً من جملة» ومن أمثلته: «سكت ألفاً ونطق خلفاً» و «جاء تضب لثته» وهذا النوع يثري التعبير ويوضحه، ومن هذا النوع ماجاء في صدره لفظ على وزن أفعل مثل: «أظلم من حية» و «أبصر من غراب» ومـاوقـع فيه شيء من ألفـاظ الإتبـاع مثـل: «جـاؤوا قضّهم بقضيضهم»، ولايخلو هذا النوع من التشبيه أو المبالغة فيه كتشبيه البصير بالغراب، والمتشابهين بأسنان الحمار في قولهم: «سواسية كأسنان الحمار»

٣) المثـل الحكمي: وهـو تعبـير موجـز شديد الإيجـاز، يصوغ الحكمة بلفظ مجرّد، ويتضمّن قيمة من القيم أو يدعو إلى مبدأ من المبادىء كقول العرب: «السرّ أمانة» و «العدة عطية» وكقولهم: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً».

٤) العبارة التقليدية المتداولة: والعرب تكثر من استعمال هذا النوع في الدعاء والخطاب والتحية، ويتضمن عبارات يصقلها الاستعمال، وتتلقفها الألسنة، كقولهم: «بلغ اللّه بك أكلأ العمر» و «لا أرقأ اللّه دمعته» و «رماه بأقحاف رأسه»

المثل التصويري
التعبير المثلي
المثل الحكمي
العبارة المتداولة

د ـ خصائص الأمثال وقيمتها:

تتميّز الأمثـال بخصـائص اقتضتهـا طبيعة اللغة العربية أوّلاً، والمواقف التي اكتنفت صياغتها ثانياً، وأهم هذه الخصائص:

١) الإيجـاز: إذا كان الإيجـاز ظاهرة تميز اللغة العربية فهو في الأمثال شديد التركيز والتكثيف، ولذلك شاع في الأمثال الحذف، واضطر النحاة إلى التأويل والتقدير في إعرابها.

٢) التصوير: في أكثر الأمثال العربية استعارات وكنايات وتشبيهات بلغت الغاية في الجمال والرقة تقول العرب: «إياك أن يضرب لسانك عنقك» وقولهم: «لو ذات سوار لطمتني» وقولهم: «إنه لأجبن من صافر» والصافر الطائر الصغير الذي يصفر.

الإيجاز
التصوير

٣) الموسيقا: زيّن العرب أمثالهم بتوقيعات صوتية جميلة تيسر تداولها، وتفتح لها القلوب والأسماع، كالسجع، والتوازن، والإتباع. وربّما توافر لبعضها الوزن الشعري العروضي إمّا لورودها في قصائد ومقطّعات، وإمّا لأن الحسّ الرهيف الذي شارك في صوغها أطلقها موزونة مثل: «إلّا حظيّة فلا أليّة» و «جاء بأمّ الرُّبَيْق على أُرَيْق» و «العاشية تهيج الآبية» ومن أمثالهم الموزونة «سقط العَشَاءُ به على سِرْحان» و «إنّ الجبانَ حتْفُه من فَوْقِهِ» وأمّا أهمية الأمثال فتبدو في إجماع الأدباء والنقاد قدمائهم والمحدثين على الإعجاب بها للأمور التالية:

١) بلاغتها: فقد رأى عبد الله بن المقفع أنها «آنق للسمع» من أَضْرُبِ الكلام الأخرى، وقال النظام إنها «نهاية البلاغة» ورأى الفارابي أنها «من أبلغ الحكمة» ولو جمعت ماقيل في إطراء الأمثال لظفرت بقدر وافر من أقوال الأدباء يدلّ على مكانتها الفنية والفكرية.

٢) سيرورتها: شاعت الأمثال فيما يكتب الناس ويتحدثون، واتخذ بعضها حُججاً وبراهين. قال ابن عبد ربه إنها «أبقى من الشعر وأشرف من الخطابة، لم يسر شيء مسيرها، ولا عمّ عمومها، حتى قيل: أسير من مثل».

٣) تعبيرها عن الأمة العربية: لمّا كانت الأمثال خلاصات تجارب، فقد حفلت بكثير من ثقافة العرب وقيمهم وخلقهم، وواكبت تطورهم. قال الدكتور رمضان عبد التواب: «إنها مرآة صافية لحياة الشعوب تنعكس عليها عادات تلك الشعوب وتقاليدها وعقائدها، وسلوك أفرادها ومجتمعاتها. وهي ميزان دقيق لتلك الشعوب في رقيها وانحطاطها وبؤسها ونعيمها وآدابها ولغاتها» وقال زهايم: إنها «الأنغام اللغوية الصغيرة للشعوب، ينعكس فيها الشعور والتفكير وعادات الأفراد وتقاليدهم».

٤) صلتها بالقصة: يبالغ بعض المعجبين بالأمثال، فيذهب إلى أنها تُعدّ جذوراً للقصة العربية في العصر الجاهلي لارتباط أكثرها بأحداث وشخوص وتجارب.

هـ ـ نموذجات من الأمثال:

أشرنا قبل إلى كثرة الأمثال في أدبنا العربي، وقلنا: إن (مجمع الأمثال) وحده حوى أكثر من ستة آلاف مثل، فإذا ألحقت بهذا المقدار الكبير أمثال المولّدين تحصل لك تراث ضخم. وفي هذا الكتاب اجتزأنا بنموذجات من الأمثال الجاهلية، بعضها

مفسّر تفسيراً مفصّلاً، وبعضها مشفوع بما وضع له.

١ ـ أسعد أم سُعيد ؟

٢ ـ الحديث ذو شجون.

٣ ـ سبق السيف العذل.

فسّر المفضل بن سلمة هذه الأمثال، فقال: «أول من تكلم بها ضبة بن أدّ بن طابخة. وكان من حديث ذلك فيما ذكره المفضل الضبي: أن ضبة كان له ابنان، يقال لأحدهما سعد وللآخر سُعيد، فنفرت إبل ضبة تحت الليل، وهما معها، فخرجا يطلبانها، فتفرّقا في طلبها، فوجدها سعد، أمّا سعيد فذهب ولم يرجع، فجعل ضبة يقول بعد ذلك إذا رأى سواداً تحت الليل: أسعد أم سعيد. فذهب قوله مثلا، ثم أتى على ذلك ماشاء اللّه لايجيء سُعيد، ولايُعلم له بخبر. ثمّ إن ضبة بعد ذلك بينا هو يسير، والحارث بن كعب في الأشهر الحرم، وهما يتحدثان إذ مرا على سرحة بمكان، فقال له الحارث: أترى هذا المكان، فإني لقيت فيه شاباً من هيئته كذا وكذا ووصف صفة سعيد ـ فقتلته، وأخذت برداً كان عليه، من صفة البرد كذا، فوصف صفة البرد، وسيفاً كان عليه، فقال ضبة: ماصفة السيف؟ قال: هاهو ذا عليّ. قال: فأرنيه فأراه إياه، فعرفه ضبة، ثم قال: إن الحديث لذو شجون فذهبت مثلا، فضربه به حتى قتله، فلامه الناس، فقالوا: أُقتلت رجلاً في الأشهر الحرم؟ قال ضبة: سبق السيف العذل فأرسلها مثلاً».

٤ ـ وافق شَنٌّ طبقة: قال ابن الكلبي في تفسيره: «طبقة قبيلة من إياد، كانت لاتطاق، فوقعت بها شنّ، وهو شنّ بن أقصى.. فانتصفت منها، وأصابت فيها، فضربتا مثلاً للمتفقين في الشدة. وغيرها».

وقال الشرقي بن القطامي: كان رجل من دهاة العرب وعقلائهم يقال له شَنّ، فقال: واللّه لأطوّفن حتى أجد امرأة مثلي، فأتزوجها فبينا هو في بعض مسيره إذ وافقه رجل في الطريق، فسأله شنّ: أين تريد؟ فقال: موضع كذا، يريد القرية التي يقصد لها شنّ، فرافقه. فلمّا أخذا في مسيرهما، قال له شنّ: أتحملني أم أحملك؟ فقال له الرجل: ياجاهل أنا راكب وأنت راكب، فكيف أحملك أو تحملني؟ فسكت عنه شنّ، وسارا حتى إذا قربا من القرية إذا هما بزرع قد استحصد، فقال له شنّ: أترى هذا الزرع أُكل أم لا؟ فقال له الرجل: ياجاهل، ترى نبتاً مستحصداً، فتقول: أتراه أكل أم لا؟ فسكت عنه: حتى إذا دخلا القرية لقيتهما جنازة، فقال شنّ: أترى صاحب هذا النعش حياً أم ميتـا؟ فقال له الرجل: مارأيت أجهل منك، ترى جنازة فتسأل

عنها: أميت صاحبُها أم حي؟ فسكت عنه سن، وأراد مفارقته، فأبى الرجل أن يتركه، حتى يصير به إلى منزله، فمضى معه. وكانت للرجل ابنة يُقال لها طَبَقة. فلمّا دخل عليها أبوها سألته عن ضيفه، فأخبرها بمرافقته إياه، وشكا إليها جهله، وحدثها بحديثه. فقالت: ياأبه، ماهذا بجاهل أمّا قولُه: أتحملني أم أحملك فأراد: أتحدّثني أم أحدّثك حتى نقطع طريقنا. أمّا قوله:أترى هذا الزرع أُكل أم لا فإنّما أراد: أباعه أهله، فأكلوا ثمنه أم لا. أمّا قوله في الجنازة فأراد: هل ترك عقباً يحيا بهم ذكره أم لا. فخرج الرجل فقعد مع شنّ، فحادثه ساعة، ثم قال له: أتحبّ أن أفسر لك ماسألتني عنه؟ قال: نعم، ففسّره فقال شنٌّ: ماهذا من كلامك فأخبرني من صاحبه؟ قال: ابنة لي، فخطبها إليه، فزوجه إيّاها، وحملها إلى أُهله. فلمّا رأوهما قالوا: وافق شَنٌّ طَبَقة. فذهبت مثلاً».

٥ ـ مرعى ولا كالسعدان: «كان سبب هذا المثل أنّ امرأ القيس كان مُفرَّكاً لا يكاد يحظى عند امرأة، فتزوّج امرأة ثيباً، فجعلت لاتقبل عليه، ولاتريه من نفسها شيئاً مما يحب. فقال لها ذات يوم: أين أنا من زوجك الذي كان قبلي؟ فقالت: مرعى ولا كالسعدان: فأرسلتها مثلا. والسعدان نبت تسمن الإبل عليه، وليس في كل مايرعى مثله».

٦ ـ ربّ ساع لقاعد: «يُقال إنّ أوّل من قال ذلك النابغة الذبياني. وكان قد وفد إلى النُّعمان بن المنذر وفودٌ من العرب، فيهم رجل من بني عبس، يقال له: شقيق، فمات عنده. فلمّا حبا النعمان الوفود بعث الى أهل شقيق بمثل حباء الوفد، فقال النابغة حين بلغه ذلك: رب ساع لقاعد».

٧ ـ إذا عزّ أخوك فَهُنْ: مياسرتك الصديق خُلق حَسَن لا غضاضة فيه.

٨ ـ إذا ترضيت أخاك فلا أخالك: إذا ألجأك أخوك أن تترضاه فليس بأخ لك.

٩ ـ إنّ غداً لناظره قريب: يضرب للتريث والانتظار لوقوع المأمول.

١٠ ـ تجوع الحرة ولا تأكل بثديها: يضرب في صيانة المرء نفسه عن خسيس المكاسب.

١١ ـ ربَّ عجلةٍ تَهَبُ ريثاً: يضرب للرجل يشتدّ حرصه على حاجته، ويخرق فيها حتى تذهب كلّها.

١٢ ـ مكره أخاك لابطل: يضرب لمن يحمل على مايكره.

١٣ ـ فلان لايُصطلى بناره: يُضرب للعزيز الممتنع.

١٤ ـ جاء بخفَّيْ حنين: يضرب لكلّ خائب أو خاسر.

١٥ ـ من حبَّ طبَّ : يضرب لمن ألجأته الحاجة إلى أن يكون فطناً يحتال لنفسه .
١٦ ـ الصيفَ ضيعتِ اللبن : يضرب لمن يفرط في الأمر في وقته ، ويطلبه في غير وقته .
١٧ ـ حلب الدهر أشطره : يضرب لمن أتت عليه كل حال من شدةٍ ورخاء .
١٨ ـ كلّ فتاة بأبيها معجبة : يضرب لمن يعجب بما يخصّه .